عالمُ موريس

بُثينة سليمان ❖

خرج أندرو من الباب الخلفيّ لمنزله وبدأ بريّ شتلات الورد التي أخذتْ براعمُها بالتشكّل. كان مغتبطًا ومرتاحًا؛ فقد أنهى جلساتِ العلاج الكيميائيّ. وإنْ صحّت حساباتُ طبيبه، والتزم بالأدوية، واعتنى بنوعيّة الأطعمة التي يتناولها، فسيَضمَن خمسَ سنوات كاملة بلا هواجس. ولقد كان على يقين أنّ هذا المرض الخبيث لن يتوانى عن قهره في النهاية، ولذلك قام بترتيب أموره بحيث يَقْدر على مواجهة كلّ طارئ.

قرّر أن يستفيدَ من الأوقات الفائضة. فخصّص وقتًا للرياضة، ووقتًا صباحيّاً للعناية بالحديقة، وعصرًا ــ بعد أن يرحل موريس وحكاياتُه ــ يجلس في غرفته ويكتب. لم تدخل النساءُ في سجلّ أعماله التي يريد أن ينفّذها قبل نفاد الوقت؛ فعلى عكس موريس الذي استهلكه المرضُ والنساءُ، كان أندرو متحفّظًا حيال المرأة، حتى إنّ موريس كثيرًا ما شكّك في ميوله الجنسيّة على سبيل المزاح. وكان دائمًا يردّ عليه بهدوء، معتبرًا أنّ في المزاح جدّاً، وأنّ عليه أن يتوقّف عن هذه السخافات لأنها تزعجه.

موريس في سنّ أندرو، يعاني الروماتيزمَ المزمن، وتَظْهر عليه علاماتُ الشيخوخة المبكّرة. يسكنان في حيّيْن متجاوريْن، وتمتدّ علاقتُهما إلى سنوات طويلة: فقد عملا في البريد سنوات، ثم انتقلا إلى بيع العقارات، وانتهى المطافُ بهما متقاعديْن متفرّغيْن لعلاج أمراضهما التي ستغيِّر حياةَ كلٍّ منهما.

كان موريس هشّاً في مواجهة مشاكله، يهرع إلى صديقه كي يخفّفَ عنه ويفكّرَ عنه في إيجاد الحلول. لم يستطع أن يتصرّف يومًا من دون مشورته، حتى في الأمور التي لا تتطلّب مشورة. كان فخورًا بصداقته، معتزّاً بوجوده، يعتبره بمنزلة الأخ والأب والابن. و«الطفولة،» التي كان يبرّر بها سوءَ تصرّفاته وحاجتَه إلى المشورة، لم تكن لتزعج أندرو، بل كان يتفرّغ من أجله، حتى ليخيّل إلى الآخرين أنهما شخصٌ واحدٌ في تعاملهما مع الأمور.

وكان أندرو سعيدًا بدوره في أن يستعيرَ تلك الحياة التي كانت دائمًا تقدّم مفاجآتِها لموريس. وكان يبرّر لنفسه سرقةَ حياة صديقه لأنه كان في حاجة إلى ما يملأ به فراغَ أيّامه. لكنه بعد تشخيص الطبيب إصابتَه بالسرطان، قرّر أن ينسحب من حياة موريس. شعر موريس بالغضب لأنّ صديقه لم يعد موجودًا ليحميه من ضعفه. وكان موريس قد سمح لصديقه بأن يغوص في أعماق روحه ويشاركَه مسرّاتِه وأحزانَه، مقابل أن يحميه من تخبّطه الذي خسر بسببه أسرتَه. وبانسحاب أندرو، فقد موريس بوصلةَ الحياة.

في تلك الفترة التي شكّلتْ مفصلاً في العلاقة بين الرجلين، عَصفتْ بموريس قصةُ حبّ جديدة بطلتُها سيلينا، التي بدت استثناءً بين نسائه الخفيفات والمتشابهات. في اللقاء الأول الذي جمع أندرو بسيلينا في بيت موريس، فوجئ بامرأةٍ فاتنة، ملامحُها ناعمة، وجسدُها ضئيل. سأل صديقَه بشيء من الدهشة: «ألا تستحقّ رجلاً أوسمَ منك وأصغر سنّاً؟». كان موريس فرحًا بها، يزقزق كعصفور، لا يصدّق هذه الجنّةَ التي بين يديه. انتابت أندرو غيرةٌ مفاجئة. استفزّه هذا الافتتانُ بصديقة صديقه، فحاول أن يتجاهلها، لكنّ حواسّه الداخليّة كانت تراقبها. ظلّ يوارب، وظلّ متأهّبًا. تخيّل نفسَه راكضًا نحوها، رافعًا إيّاها في الهواء، مثلَ طفلةٍ صغيرة، مقبّلاً عنقَها، منحنيًا على تفاصيلِ جسدها بتأنٍّ. إنّ ما فعله به وجودُ هذه الحسناء شيءٌ يفوق تصوّرُه.

في طريق عودته إلى بيته، كانت كؤوسُ النبيذ كافيةً لتُخلّصه من التشنّج العضليّ الذي أمسك بكتفيه. مشى طويلاً. تجاوز منزلَه، وأكمل في اتجاه الحيّ حيث يوجد سوبرماركت كبير. ظلّ يمشي بين الأرفف، يرى الأشياءَ ولا يعيها.

قرّر أن يتخطّى اللهفةَ التي قبضتْ على صدره. نام نومًا متقطّعًا إلى أن جاء الصباحُ وقرّر الاستمرارَ في حياته دون أن يفكّر بسيلينا. لكنّ موريس جاءه وأخبره بخلافه معها، وبرغبتها في الانفصال عنه. كان موريس في حالة انهيار، وطلب من أندرو أن يتوسّط بينهما علّه يثنيها عن قرارها.

❖ ـ كاتبة من لبنان.

اتصل أندرو بسيلينا هاتفيا. أنصت إلى صوتها وهي تشكو صبيانيّةَ موريس وتهوّرَه. تعاطف معها ووافقها في كثير من مآخذها. تشعّب الحديثُ وطال، ولم يعد لموريس مكانٌ فيه. اتفق أندرو وسيلينا على اللقاء في مقهًى يقع في ضواحي المدينة. كتب في مفكّرته عنوانَ المقهى وهو يشعر بقلبه يهوي بين ضلوعه.

في المساء تجاهل أندرو صديقَه وحاول أن يَشْغل نفسَه بدعوة أحد جيرانه إلى فنجان شاي. أوى إلى فراشه مبكّرًا وأغلق هاتفَه النقّال، وسرعان ما استسلم إلى نومٍ خَدِّر مفاصلَه. راح يرى سيلينا في منامه تركض في مرجٍ تتبعها فراشاتٌ ملوّنة، وصقرٌ يحوِّم في الأعلى.

استيقظ على صوت المنبّه وقد تخطّت الساعةُ التاسعةَ بدقائق. أتاه صوتُ موريس صاخبًا:

ـ أين أنت؟

ـ ما زلتُ في سريري.

ـ ماذا دار بينكما من حديث؟

ـ بين مَنْ ومَنْ؟

ـ بينك وبين سيلينا. نسيتَ؟

ـ كانت تركض وسط مرجٍ تتبعها فراشاتٌ ملوّنة.

ـ دع المزاحَ جانبًا. هل ستعيد سيلينا النظرَ في قرارها؟

ـ تحدّثتْ عن أمورٍ كثيرةٍ تزعجها. سأكلّمها ثانيةً اليوم.

ـ قل لها إنني أحبّها جداً.

ـ سأرى ما يمكنني فعلُه. كلُّ شيء سيكون على ما يرام.

ـ إلى اللقاء.

عاد إلى فراشه وقد جمدتْ عيناه. لقد كذب على صديقه وأخفى عنه موعدَ اليوم. أنّبه ضميرُه وهو يفكّر في لقاء سيلينا. عاهد نفسَه أن يحترم مشاعرَ موريس وحبَّه لسيلينا. كان يفكّر في صديقه الذي يَحْشره دائمًا بينه وبين نسائه. لكنّ الأمر بدا هذه المرة مختلفًا: فموريس، بإلحاحه، كان يصنع قدرَ صديقه، بأن يقدّم له حبَّ حياته.

لم ير أندرو في الأمر خيانةً، بل اعتبر أنّ حبّه لسيلينا تقاطع مع حبّ صديقه لها. حاول أن يكبت الرغبةَ التي جعلتْ قلبَه يَقْرع لها، وحواسَّه تُستنفر، وجعلتْه يرغب فيها كلّما تحدّث موريس عنها. ألغى موعدَ الطبيب حتى لا يتأخّر عن موعده معها. فتح مفكّرته وكتب عن سيلينا. بدأ من الحلم، وعلّق ساخرًا أنّ الفراشات أرواح عجائز تتبع طيفَ صبًا لا يُشْبه سيلينا في شيء. وكتب عن صديقه الأخرق الذي لا يزال يؤْمن بسحره على النساء. لم يشأ أن يكشفَ له عن رغبة سيلينا في استكمال حياتها بعيدًا عنه لأنه أرهقها بغيرته وبطريقة عيشه «التقليديّة والمملّة.» كان مصغيًا إلى صوت سيلينا الذي نخر عظمَه بعذوبته. ثم دوّن ملاحظةً أخيرة: «اليوم، ألتقي بالمرأة التي ستقبض على قلبي بين يديها.» أغلق مفكّرتَه لينطلق في مغامرته.

كان أندرو خفيفًا بدايةَ هذا النهار. أمضى ساعةً في النادي الرياضيّ. ثم تناول فطورًا متأخّرًا على عجل، لينطلق باتجاه ضاحية المدينة، حيث الأسواقُ الشعبيّة التي تبيع البضائعَ الصينيّة والوطنيّة بأسعارٍ رخيصة. كان لديه متّسعٌ من الوقت ليعيد اكتشافَ هذا الجزء من المدينة الذي غافله ونهض بناسه وبأبنيته وبعالمٍ مغايرٍ لعالمه. توقّف عند عرباتٍ تبيع ألعابًا بلاستيكيّةً كان يشتريها لأبناء موريس، الذين

كانوا ينتظرونه محمّلاً بألعاب ليغو وسيّارات وجرّارات وشاحنات، فينادي على الصغيرين جاد وأمين ليفتحا الأكياسَ الكبيرة. ثم يخبّئ كيسًا خلف ظهره، ويسأل ريتا الخجولة: «ماذا أخبّئ لك اليوم؟». تظلّ الصغيرةُ في حضن أمّها تمصّ إصبعَها، وتتأمّله بصبر وهدوء. يعيد سؤالَه ثانيةً، فتكشف عن أسنانها الحليبيّة. تتابع عيناها الكيسَ الذي يخشخش بين يديه، وفي كلّ مرة تحتاج وقتًا كي تترك حضنَ أمّها وتمسكَ بالكيس لتكشفَ عن وجه دميةٍ جميلة. وكانت زوجةُ موريس تشكره بأدبٍ وتذكّره بأنّ الألعاب التي جاء بها في المرة الماضية تزيد عن حاجة الولدين. أما موريس فكان يقهقه ويقول لصديقه: «أنت تكره الألعابَ البلاستيكيّة وتُغدق بها على أبنائي.»

سرعان ما ستنشب الحربُ الأهليّة، فتقرّر زوجةُ موريس أن تهاجرَ وأولادَها إلى أميركا حيث يعيش بعضُ أقاربها، تاركةً موريس متذرّعًا بواجباته الوطنيّة. وفي تلك الفترة، تَعلّق موريس بامرأة، ودافع عن نفسه أمام أندرو مؤكّدًا أنّ هذا الحبّ لن يقلّل من حبّه لزوجته ولن يبعده عن أولاده. رفض أندرو حججَ موريس واعتبر فعلَه خيانةً كبيرةً، ولم تنجحْ محاولاتُه في ثني زوجة موريس عن قرارها، فذهبتْ ولم تعد.

في صيف عام ٢٠٠٠ جاء الولدان، اللذان صارا شابّين مستقلّين، لزيارة والدهما. كان أندرو محرجًا من اللهفة التي أحاطاها به؛ لهفةٍ لم يقابلا بها والدَهما. شعر أندرو أنّ جاد وأمين هما الولدان اللذان لم ينجبْهما. كان سعيدًا بهما، وقد اعترفا له بأنّ صلتهما بعالم الشاحنات والجرّارات والسيّارات البلاستيكيّة هي التي جعلتْ منهما مهندسيْن ميكانيكييْن. وكان أندرو يسأل نفسه: هل عرفا أنّ والدهما فضّل حبَّه لامرأةٍ ثانيةٍ على موافاتهما إلى أميركا؟ هل شعرا بنار الغيرة التي أخمدتْها أمُّهما بالهجرة؟

وكان أندرو فخورًا بريتا التي أصبحتْ كاتبةً متخصّصةً في كتب الأطفال، وكتبتْ له ذات يوم رسالةً مطوّلةً عن عالم الدمى الذي حملته معها وولّد لديها مخيّلةً تدين له بها. كما أجبرتْه على تعلّم استخدام الكمبيوتر ليحافظ على مراسلتها بشكل شبه يوميّ، فتُطْلعه على مشاريعها وأحلامها. وقد أسرّت له بعلاقتها بشابّ أمريكيّ من أصولٍ إيطاليّة، ودعته إلى حضور زفافهما، لكنّ إصابتَه بالمرض وفترةَ علاجه التي أنهكتْ قواه لم تسمحا له بالسفر إلى أميركا. أما والدها موريس فاعتذر عن الذهاب متذرّعًا برغبته في الوقوف إلى جانب صديقه في محنته.

كان أندرو مقتنعًا بأنّ موريس خذل أسرتَه من أجل عاصفةِ حبٍّ لم تدم طويلاً. انخرط في الحرب، وتنقّل من جبهةٍ إلى جبهة. نجا من الموت مرتين، واعتُقل غيرَ مرة. وكان أندرو دائمًا إلى جانبه، يحميه ويوجّه إليه النصائحَ، ويستمتع بدوره كصديق طيّب. لكنه طوال تلك السنوات لم يوهمْ نفسَه بخصوص هذه الطيبة، بل كان يستعير عالمَ موريس ليعيش تفاصيلَ فوضاه ومغامراته المجنونة.

كان من صنف الرجال الذين لا تستهويهم الحروبُ. وكان يرغب في تأسيس أسْرة، ويعدّد الأهدافَ والمُثلَ والقيمَ التي يريدها لأطفاله. وفي السنوات القليلة التي رافق فيها زواجَ موريس وولادةَ أولاده، كان يناقش أدقّ تفاصيل هذه الأسرة. وربّما لذلك لم يستعجل الزواج. كان أندرو يحلم، وكان موريس يعيش الأحلامَ. تزوّج من دون مقدّمات، أو تفكير عميق قد يعوّق هذا الزواج. ثم أنجبتْ زوجتُه خلال ثلاث سنوات ثلاثةَ أطفال ملأوا عالمه قبل أن يملؤوا عالمَ والدهم.

مرّ الوقتُ بطيئًا وهو يتأمّل الأسواقَ التي تعْرض بضائعَها في العراء. كان قلقًا؛ فهو لم يعتدْ ضربَ مواعيد غراميّة، بل كانت علاقاتُه تأتي تلقائيّةً، عابرةً، خاليةً من الشرارات التي تلامسُ حوافَّ القلب.

جلس في المقهى ينتظر سربَ فراشاتٍ ملوّنة، وامرأةً بشعرٍ كستنائيّ وعينين عسليّتين، تشبه دميّة باربي التي احتفظ بها لريتا، امرأةً ستحطّم قلبه وتذيبُ ثلجَ عواطفه.

سنواتٌ أربعُ مرّت. في المنزل، تتصل سيلينا بالطبيب لتحدّد موعدًا لبدء رحلةِ علاجٍ تبدو هذه المرةَ طويلةً، وقد لا يعود منها أندرو، الذي كان سعيدًا وراضيًا بالحياة القصيرة التي بناها لنفسه مع حبيبته بعيدًا عن عالم موريس وحكايته.

بيروت